نشوي معتز

دمعة ورقة شجر

بروحٍ مُثقلةٍ فاقدةٍ للأمل، قطعت آخرَ صلةٍ لها تربطها بالفرعِ العُلويّ مِنَ الشجرةِ، وتركت نفسها تتهاوى سقوطًا من أعلى مكانٍ لها في الشجرةِ مرورًا بالفروعِ الأخرى واحِداً تِلو الآخر. فهي لم تعُد ترى لوجودِها أيّ فائدة، بل لم تكترِث لِجمالِها وبهائِها وسِحرِها.. كانت أضعف إيمانًا بنفسِها وأكثر إعجابًا بغيرِها..

على الرغمِ مِن موقِعها المُميز في الأعلى – والذي يجعلُها أكثر عُرضةً لشمسِ الصباحِ الدافئةِ - فقد ظلّت تُعاني الوحدة دومًا ظنًا منها أن لا أحد يُريدُ أن يُصادِقها، وأهملت كونها الورقةُ الأولى التي تنبت على ذلِك الفرع ماجعلَها أكبر حجمًا بمرورِ الوقت وأكثر ظلاً لِمن تحتها..

أغفلَت أنّها بِتلكَ المساحة الكبيرة التي تُكوّنها قد حملت معها نسبةً كبيرةً مِن المادةِ الخضراءِ (الكلوروفيل) والتيّ تضُخُ في عروقِ نصلِها الإشراق والنضارة. تَنَاسْت أنها أولُ من تُشرِقُ عليها الشّمسُ مِنْ بينِ الفروعِ الأُخرى، وأنّها أولُ منْ يحمِلُ قطراتِ الندى ويستَضِيفُها عِندهُ لِلحظاتٍ.. ثمّ ما تلبثُ تِلكَ القطرةُ أن تتلاشى بعد أن يأخُذ سطحها حمّامًا مُنعِشًا يُبقيها غَضَة..

لمْ تعترِف بأيّ ميزةٍ تملكُها، فقد كانت ترَى جارتَها بِالفرعِ الأسفلِ مِنْها أكثر حظًّا لأنها تتوارى خلفَ الوُريقاتِ الظاهرة، فلا تنالُها حرارةُ الشمسِ وشِدتها..

كمْ كانت تغبِطُ تِلك الورقةِ التيّ رحلت في سلامٍ منذُ أيامٍ بعد أنْ أصابها ذُبول أطفأ نُورها.. فقد أرادت أن تنتهي كمَا انتهى الآخرون.

لطالما ظنّت نفسها وحيدةً.. ضعيفةً.. لا يُعتمدُ عليها.. لا تنفعُ ولا تضُر.. فمنْ يعبأُ بِوجودِها أو بقيمتِها.. ظلّت تُردِدُ ذلِكَ كِثيرًا حتى تهاوت ثملة بين الأفرُعِ السُّفلى.. لكِن مع كُل فرعٍ تصِلُ إليهِ يتهادى إلى سمعِها حِوار يستوقِفها.. فها هي وُريقةٌ حديثةُ العهدِ تشكوُّ لأمّها صِغرَ حجمِها، فبالكادِ تستطيعُ أن تجِد لِنفسِها مكانًا بين ورقِ الشجر، وها هي ورقةٌ أُخرى تصرخُ غوثًا طالبةً النجدة مِن تِلك الحشرة الضخمة القابِضة على عُروقِها لِتفتِك بِها وتشبِع جُوعها.

على يمِينها ترى ورقةً قد أذبلها غيابُ الشمسِ عنها فهي تنمو داخل الورق والفرعِ بعيدًا عن الضوء، وأُخرى لا يصِلُها ماء بالقدرِ الكافي فلا تكتمِلُ نموًا.

كانت دائمة النظرِ للزهرةِ الجميلةِ التي تُحيطُ بِها وتمنّت لو كانت هي تِلك الزهرة، تلفتُّ نظر المّارين إليها، ويرعاها البُستانيّ لأجلِ أن يعتصِر عطرها فيملأ بِهِ أنوف المُحبين. كانت تنظرُ لِتلك الزهرةِ على أنها أعلى قدرًا وقيمة، وتغفُل ماتحملهُ من قدرٍ وقيمة. لم تُدرِك أنّها خُلِقت من أجلِ شيءٍ.. وأنها خُلِقت فريدةً مِنْ نوعِها.. مُختلِفة.. رغم تشابهها شكلاً ولونًا مع غيرِها.. تبقى مختلفة ولا تعلم أين يكمُن الاختِلاف.

استمرّ سقوطها رويدًا رويدًا وهي تُعيدُ إلى ذهنها ما سمعته ممن حولها، وتتذكرُ موقعها وقيمتها وفائدتها، فيعتريها شعورٌ بالندمِ تتمنى أن تتلقاها أيدٍ حانية لتمنعها من الوصولِ إلى الأرض، لكنها بالفعلِ كانت قد وصلت لمحطة البداية.. فقد عادت للأرض.. منبتها.. حيثُ ستبدأ من جديدٍ وتحيا حياةً جديدة تُشكلها بإرادتها.. فقد علِمت أين تكمن قوتها وما هي أهميتها.

ثمّ إنه قد حدث ماكانت تتمناه دهرًا.. فقد عانقتها الأرض.. كم كانت تتمنى لو تُعانِقها قلوبٌ تحبها لتدفئها وتطمئنها.. فها هي الأرض بكلِ حبة طينٍ فيها تحتضن كل جزءٍ من تلك الورقة.. لقد أشبعتها احتواءً.. كانت لها السكنى.. فهدأت واطمأنت.. وستبدأُ من جديد..